يتصنعون، ولا يجدون في مخالطة الحيوان حرجًا ولا أذى. هي الحياة السهلة اليسيرة الغنية همَّت أن تتحضر وأن تترف، فأخذت من الحضارة والترف بحظٍّ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكتفت بما أخذت، ووقفت عند حدٍّ من الحدود لا تعدوه.

ولم أكد ألقى ربة البيت ومن حولها بناتها وخادماتها يعملن وتعمل معهن، يتحدثن وتشاركهن في الحديث، حتى أحسست أني سأجد في هذه الدار راحة وتعبًا، وسألقى فيها نعيمًا وبؤسًا. وقد صدق حسي، فنعمت في هذه الدار وشقيتُ: نعمت بهذه السذاجة التي ردتني إلى شيء يشبه حياتي في أقصى الريف، وخلطتني بأهل الدار كأني واحدة منهم، وألغت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت تلغيه، ولكن أي حياة يموت فيها العقل أو يأخذه شيء كالموت! لم آسف على ما فقدت من الترف، ولعلي لم آسف على ما فقدت من صحبة خديجة؛ فقد استيأست من صحبتها واتخذتها — سواء أردت أم لم أرد — لنفسي خصمًا، حاربتها وإن زعمت أني كنت أدافع عنها، وظلمتها وإن زعمت أني أنقذتها، وانتصرت عليها وإن زعمت أني لم آسف لما فاتني من صحبتها فلم يكن من ذلك بدٌّ! ولكن أي أسف وأي حزن وأي لوعة وحسرة، وأي ندم يذيب القلب ويملأ النفس كآبة ويأسًا هذا الذي كنت أجده إذا أصبحت وأمسيت وقضيت الليل والنهار بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه للقلب!

أين القراءة مع خديجة، وأين القراءة منفردة؟ أين هذه الكتب العربية وهذه الكتب الفرنسية التي كنت أنفق معها أكثر النهار وشطرًا من الليل قارئة أو متحدثة عما قرأت أو متمنية لاستئناف القراءة؟ لقد تركت هذا كله في بيت المأمور، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله أحد، إلا رب البيت؛ فإنه يقرأ إذا أصبح، ويقرأ إذا أمسى، وأنا أسمعه في الصباح والمساء، وأكاد أحفظ عنه ما يقرأ. وما يعنيني مما يقرأ! إنما هي أوراده وأدعيته، ودلائل الخيرات. وأين أنا من هذا، وأين هذا مني؟!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم استصحب كتابًا، وما كان لي أن أستصحب كتابًا، وإنما كانت كلها كتب لخديجة. ولقد سألت نفسي ألف مرة ومرة: أين يمكن أن أظفر بهذا الكتاب؟ فليس في هذه المدينة من مدن الريف كتب تباع إلا هذه التي يعرضها الطوافون في أيام السوق أو في يوم الخميس من كل أسبوع، يعرضونها في السوق ويمرون بها على الدور، وليس لي فيها أرب ولا منفعة، إنما هي قصص لا تعجبني ولا تروقني وسحر لا أحسنه، وصلوات دينية لا أعرف منها قليلًا ولا كثيرًا.

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والجلد الأنيق، هذه التي تأتي من القاهرة والتي كنت أجد اللذة والمتاع حين آخذها في يدي أو حين أنظر إليها؟ أحيل بيني وبينها